الفصحى والعامية في رحاب مجمع اللغة العربية بالقاهرة
أزمة مزمنة *
(١٩٤٣ - ١٩٦٠)

للأستاذ الدكتور محمد رشاد الحمزاوى

١-١-مدخل :

لقد آثرت أن أسهم في القضية المطروحة في هذه الدورة [١] بالعودة إلى ما قيل فيها في رحاب المجمع قبل 65 سنة مضت إن اعتبرنا أن المجمع قد عالجها لمدة سنة تقريبا حسبما سجلناه من مداولاته وأعماله بمؤلفنا " أعمال مجمع اللغة العربية : مناهج ترقية اللغة تنظيرًا ومصطلحا ومعجما"[٢] . فلعلنا سنكتشف أننا نتحدث في قضية قد بت في أمرها ولا داعي إلى أن تعود حليمة[٣] إلى عادتها القديمة . ولعلنا سنلاحظ أننا أمام قضية طبيعية مزمنة لم تنزل حق منزلتها من الدرس والتعمق في نطاق اللهجات البحت وطبقاً لما تستوجبه الدراسات اللسانية الحديثة التي زودتنا بمفاهيم وآليات تستحق العناية . ولعلنا كذلك سنستخلص منها أننا نظرنا إلى قضية اللهجات نظرة مُقَنَّعَة تنكر هذه الظاهرة الكونية التي واجهتها وستظل تواجهها كل اللغات لا سيما الكبرى والحضارية منها مثل العربية ولعلنا ما زلنا نطرحُ القضية مثلما طرحها المتقدمون من المجمعيين وحتى من القدماء... ولعل .. ولعل .. إن هذه الاحتمالات واردة بالمقارنة بين مواقف الأمس وما عسى أن يظهر منها اليوم لاسيما ونحن مدعوون إلى محاسبة المجمع ــ وبالأحرى أنفسنا على الالتزام بأهداف دستوره التي تفترض أن يوفق بين عنصرين يبدوان متناقضين وكأننا باللغة تعكس معادلاتنا الصعبة ــ في

---

* ألقى هذا البحث في الجلسة الرابعة عشرة من مؤتمر الدورة الخامسة والستين يوم الأحد ٣ من ذي الحجة سنة ١٤١٩هـ الموافق ٢١ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٩م .

ميادين أخرى وعجزنا عن الخروج منها .. ويتمثلان في المحافظة على سلامة اللغة مع جعلها وافية بمتطلبات العلوم وبمواكبة العصر بكل مظاهره البارزة ومنها اللهجات .

ولقد استعنا في محاولتنا هذه بكل ما وفره المجمع من وثائق رسمية وعلمية ومجمعية : دساتيره ولوائحها ومحاضره ومجلاته المختلفة وترجمات أعضائه وتدوينات تاريخه . وهى تفيدنا بأن المجمع قد عالج القضية في محاور أربعة استخلصناها من مقارنات متداخلة ومتناثرة أحيانا . وعلى نقاط تستحق النظر وتدور حول :

(1) القضية : أهدافها ووسائلها .

(2) معركة المفاهيم والمصطلحات

(3) فتح باب السماع من المحدثين

(4) معجم العامية وأصواتها ونحوها .

١-٢ : الأهداف والوسائل: الملاحظ أن هذه القضية قد نزلت سنة ١٩٣٤ منزلة القضايا اللغوية الجوهرية الأساسية [٤] مثل إصلاح الكتابة وتيسير النحو ومساواتها بها. ويعد ذلك نقلة نوعية في تاريخ الدراسات اللغوية العربية وبالأحرى في الجدل اللغوي وما أشده وما أكثره في هذا الحقل المتفجر منه لأن المجمع كان أول مؤسسة عربية رسمية يسبح دستورها بهذا النوع من الجدل الذي يرى فيه بعضهم خرقا لتقاليد راسخة تكاد تكون مقدسة . وخلافا لعنوان دورتنا الحاضرة " الفصحى والعامية " المطروح سنة ١٩٩٩م. فإن الموضوع قد طرح تحت عنوان آخر يفيد مفهومًا مغايرًا وهو "دراسة اللهجات دراسة علمية".ولا شك في أن مصطلح " العامية " يعبر، من خلال المقارنة بين العنوانين، عن حكم يكاد يكون مسبقا إن لم نقل عن مواقف فيها دونية بقدر ما جاء سابقه وصفيا حياديا يطلب دراسة موضوعية علمية يمكن أن يحكم بمقتضاها للهجات أو عليها .

جاءت مسألتنا مذكورة في دستور المجمع وفي لائحته المطبقة له

وعرض أمرها مبكـــرًا فـــي الـــدورة الأولى بالجلســـتين الثانيـــة والرابعـــة بتاريخي ٢،٤ فبراير ١٩٢٤ وتكونـــت لجنة اللهجات وما وراءها من خلفيـــات وطرحت أهدافها وما كـــان لـــها مـــن قراءات . ويكفينا هنا أن نشير إلـــى أن تسميتها وتركيبتها كانتا محل أخـــذ ورد ودقة وحيطة فلقد ألحقت بلجنة المعجـــم التاريخي ، ثم بلجنتي الآداب والعلـــوم الاجتماعية والفلسفية دون أن يفكر بتاتا في ربطها بلجنة الأصول مثلا ومالـــها من حالات وثيقـــة بـــها . وتجاذبتـــها تيارات لغوية وذهنيـــة أولـــها تراثـــي محافظ منه الشيخ محمد الخضر حسين، والشـــيخ إبراهيـــم حمـــروش ، والأب أنستاس مارى الكرملى.

وثانيـــها استشـــراقي متعـــاطف منـــه إينوليتان ، وهملتون جـــب وأوغيســـت فيشر .

وثالثها وسطى معتدل منه حسن حســنى عبد الوهاب تعويضـــا لعلـــى الجـــارم وتمثيلا للمغرب العربـــــي ، وعيســـى إسكندر المعلوف . وكان لأغلبهم صلـــة وثيقة بالموضوع مما تشهد به أعمالـــهم السابقة واللاحقة (٥)

ولقد طرأ على تركيبـــة اللجنـــة وأهدافها ومداولاتها تغييرات وأحـــداث منها أنه لم يبق فيها مـــن الشـــيوخ إلا الشيخ حسين والى عندما تسلم رئاســتها فارس نمر ، ومرت بمجادلات كـــادت تعصف بها ولا سيما في الدورة الرابعة التي بلغ فيها الخلاف أشده ، مما دعـــا المجمع إلى عدم نشر محاضر جلســـات تلـــك الـــدورة حفاظـــا علـــى ســـمعة المجمعيين الذين طرحوا القضية علـــى البرلمان . ولقد حافظ المجمع حتى فـــي العهد الجمهوري على دراسة اللـــهجات العربية التي أصبحت لجنتها " تدعـــى لجنة اللهجات والنصـــوص القديمـــة" . وقدمت في مختلـــف حقبـــها مشـــاريع متنوعة دون أن ينفذ منـــها الكثـــير . فمنها ما دعا إلـــى دراســـة اللـــهجات العربية كلها صوتـــا وصرفـــا ونحـــوا ومعجما بالاعتماد على مبادئ القراءات

القرآنية ، ووضع أطالس ومعاجم لها واستقراء خصائصها مع تزويد الدارسين بكل الوسائل المطلوبة ، ومنها ما قصرها على اللهجة المصرية والاستفادة منها . ولم يمنع هذان المنهجان المجمعيين من غير أعضاء اللجنة من الإسهام في الموضوع بطرح مبادرات جريئة تجاوزت اللجنة ولم يكن لها كذلك أثر عميق في معالجة الأزمة القائمة ، مما تدل عليه عودتنا إليها اليوم .

فكيف طرحت القضية قانونيا ولغويا ؟ بادر الشيخان محمد الخضر حسين وأحمد عيسى الإسكندري [٦] إلى تخريج البندين القانونيين المتعلقين باللهجات تخريجا مفاده أن المراد منها " إرجاع الألفاظ العامية إلى أصولها العربية " الفصيحة الصحيحة أسوة بعمل أحمد تيمور باشا في مؤلفه " معجم الألفاظ العامية " مما يفترض وجوبا أن تقتصر العملية على التهذيب والتصويب وأن تستبعد " العامية" التي عوضت مصطلح " اللهجات" من أداء أية وظيفة لغوية أو تربوية أو أدبية جمالية وحتى علمية مصطلحية . وخالف هذا الرأي كل من فارس نمر ، وعيسى إسكندر المعلوف ، ونلينو الذين أكدوا على أهمية اللهجات وأدبياتها وآدابها ، مثل: ألف ليلة وليلة والموشحات... إلخ ، وعلى جدوى أصواتها وصرفها ونحوها في إدراك مفهوم الفصاحة التي غبتها المعاجم الكبرى [٧]. وقد نحا منحاهم تقريبا الشيخ عبد القادر المغربي الذي أكد على أن هذه الدراسة كفيلة بأن تساعد على وضع أسس " لغة وسط " بين الفصحى والعامية . ودعا محمد كرد[٨]على بتأييد من الشيخ أحمد عيسى " العدو الأزرق " للتعريب [٩] ومالف لفه ــ إلى رفض العامية والتفكير في فصحى بدون إعراب [١٠].

إن هذه الآراء تبدو جريئة إلى حد ما لأنها لم تلتزم بالرفض المطلق ودعت إلى حلول وسطى ظهرت في

رحاب المجمع الذي كان في غالب الأحيان وفى بداية طرح القضية برلمان لغويا مفتوحا يتقابل فيه الرأي والرأي المخالف في نطاق آداب حوارية أكد عليها بوجه خاص في أدبياته لاسيما المتعلقة منها بمواصفات المجمعي وهى تدور حول مفاهيم وأخلاقيات مثل : " البحث والتنقيب ، وتحرى الحقيقة والصواب ، والجهد الطويل والعشق والصدق ، وطمأنينة العلماء " [١١] وهى شبيهة بما ورد منها تقريبا بدستور المجمع الفرنسي الذي يطلب من المجمعي أن يحتج للقضايا جهرا وبعمق دون مقاطعة ولا غيرة ودون التعليق على رأى الغير بحماس وسخرية " [١٢] كان ذلك في البداية ...!!

١-٣ معركة المصطلحات : تركزت القضية لغويا في أول أمرها حول معركة المصطلحات ومفاهيمها وما وراءها من خلفيات وذهنيات معرفية وثقافية سيكون لها آثار في استجلاء الرؤى وضبط مواطن الاتفاق والاختلاف ومنها تحقيق المقاصد والأهداف . فلقد دارت المجادلة أولا حول الفصيح والفصاحة والعامي والعامية تغلب عليها التخريج التراثي في تعريف الفصيح ومفاده حسب رأى الشيخ أحمد عيسى الإسكندري " فهو كلام العرب الذين يعتد بعربيتهم "[١٣] ، زمانهم ومكانهم محددان بالقرن الثاني في المدن والثالث في البوادي وقيل الثالث والرابع ، يبدأ بعدها المولد وقد عرفه الشيخ حسين والى " وسمى المولد من الكلام مولدا إذا استخدموه ولم يكن من كلامهم فيما مضى "[١٤] ولقد عزز رأيه برأي السيوطى الذي أدخل في الحلبة مفهوما عرفيا جديدا وهو المصنوع فقال " والمولد هو ما أحدثه المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم. والفرق بينه وبين المصنوع أن المصنوع يورده صاحبه على أنه عربي فصيح ". [١٥]

وزودنا الشيخ عبد القادر المغربي بمفاجأة طريفة كعادته عندما

عرض على أهل الذكـــر والمجمعييـــن مسألة استفتائية رائدة فـــي مبدئـــها ، معتمدة اليوم في الدراسات اللغويـــة[١٦] الميدانية وسماها الكلمـــات القاموســية صنفها إلى سبعة منها خمسة فصيحـــة يمتد زمانها حتى زمن الشـــيخ محمـــد عبده ، يلحق بها صنف سادس يتعلـــق بما سماه " تعريب الأساليب "[١٧] أمـــا السابع فـــهو يشـــمل الكلمـــات التـــي يستعملها العوام وهو عنده فصيح لأنـــه مطرد الاستعمال ، والاطراد حجة فـــي هذا المجال اعتمادا على القدماء.[١٨]

واصطدم مفهوم العامي بمفـــهوم المتروك اعتمادا على اقتراح من علـــى الجارم يهدف منه إلى تعويض المتروك المهجور المعاش بالعـــامي المطـــرد . ومثال ذلك تعويض " الصنبور " وهـــو النخلة النابتـــة فـــي جـــذع نخلـــة أم بـــ "حنفية الماء" و "المشير" بـــ" عقرب الساعة" و "الحلاق" بـــ " المزيـــن " ... إلخ ، وإن كانت هذه الأمثلة تنسب إلـــى المولد الحديث أكثر منها إلى العامـــي الصريح صوتا وصرفا ونحوا .

ورد على هذه المقاربات كثـــير من المجمعيين ومنهم منصور فهمي[١٩] نيابة عنهم باعتبار أن هذه التعريفـــات وما وراءها من حدود زمانية ومكانيـــة مصطنعة حتى في حـــدود الفصاحـــة ذاتها. فلقد خرقها الجرجاني وابن هشام بالاحتجاج بشعر المتنبي في كتابيـــهما الوساطة ومغنى اللبيب . ، كما خرقـــها الرضي الاستربادى في المفصل وفـــى تعليقـــه علـــى كافيـــة ابـــن الحـــاجب وتمخضت هذه المجادلـــة عـــن قـــرار للمجمع يعد خطوة إلى الأمام يؤســـس للمولد ويدعمه نسبيا معتبرا أن المولـــد نوعان أولهما ما اســـتنبطوه لاعتمـــاد طرق الكلام العربي ومنـــها المجـــاز والاشتقاق . وهو عربـــي يعتـــد بـــه وثانيهما ما اعتمدوه ســـواء باســـتعمال لفظ أعجمي لم يعرب أو لفظ قد تغـــير صوتـــا ودلالـــة لا يصـــوب أو لفـــظ مرتجل.[٢١] وذلك ما أكد عليه الشـــيخ أحمـــد الإســـكندري عنـــد احتجاجـــه

لقرارات المجمع معتبرا أن إدارج العامية في المسرح والرواية والصحافة خرق لقواعد اللغة وموازينها وسلامتها. والحجة هنا تبدو لغوية بقدر ما هي دستورية تعتمد على عنصر من عناصر المعادلة المذكورة سابقا – وهو المحافظة على سلامة اللغة – دون اعتبار للواقع اللغوي الغالب السائد في المجتمعات العربية المعاصرة .

والملاحظ في هذا الشأن أن هذا القرار قد خطا خطوة بالقضية إلى الأمام لأنه تجاوز موقف السيوطي السابق الرافض للاحتجاج بالمولد الذي نزل منزلة فصيح حديث من درجة ثانية ليست له درجة الامتياز التي يتتبع بها الفصيح الشعري الجاهلي العرقي وما لف لفه على سبيل المقاربة والنمذجة . فكأننا في حرب مواقع يتخلى عنها أصحابها بمرارة تحت ضغط كبير تفرضه نسبية المصطلحات السابقة حتى في حدود الفصاحة التراثية وفي مواجهة الواقع اللغوي المواكب سواء المولد منه أو العامي ولقد سعى المجمع إلى أن يتجاوز هذه المرحلة من الفصيح الأفصح والفصيح المولد إلى العربي المعياري المقيس دون اعتبار للزمان والمكان ومفاده أن ما قيس على كلام فهو من كلام العرب دون سواه . وهو مبدأ سبق للمازنى أن عبر عنه من زمان وأورده ابن جنى في خصائصه ، وطبق له المجمع فيما بعد في معجمه الوسيط بإدراج مفاهيم مثل: المعرب والدخيل والمحدث والمجمعي التي أشرنا إلى إشكالاتها في غير هذا المكان .(٢٣)

وبهذا القرار يبدو أن الجدل قد اكتمل على الأقل في مستوى التراشق بالمصطلحات وانتهى بطرد العامية من الحلبة وذلك من خلال مقاربتين إحداهما بينت أن المعركة كانت تستلزم تصفية الحسابات بين أنصار الفصاحة وذلك بتجاوز متناقضاتها الداخلية وبالوصول إلى مفهوم المقيس بدون زمان ولا مكان، وهو ما يعتبر كسبا

لغويا ومنهجيا مفيدا . أما المقاربة الثانية ، وهى فرع من الأولى فهي تقول على كل حال بلغة مثالية صافية مكتوبة نخبية تدعى الفصحى وبعضهم يسميها الفصيحة لتجابه لغة ملوثة منطوقة جماهيرية تدعى اللهجة وبعضهم يصر على تسميتها بالعامية . ويبدو أن الكفة كانت لصالح "الصفاء المعدل على حساب " التلوث " وإن كانت الفصاحة الصفاء فصاحات معدلة[٢٤] كما نبهنا إلى ذلك فيما سبق...

١-٤ السماع من المحدثين : تجسمت العودة إلى الجدل إثر حدث لغوى مهم طرحه أديب كاتب وصحافي مشهور بدا له أن الحلول السابقة لا تفي بالغرض ولا تشفى الغليل وهو يعيش ثلاثية لغوية في جميع مستويات سلوكه اللغوي : لغات الأدب والصحافة والشارع . ويعنى به أحمد حسن الزيات الذي فجر القضية " من جديد في بحث مشهور عنوانه : " الوضع اللغوي وحق المحدثين فيه" [٢٥] طرح فيه منزلة المحدثين من التصرف في السيادة اللغوية في جميع وجوهها فصحى وعامية ومن حق تقرير مصيرها على ضوء ماضيها وتجاربها وباعتبار مواكبة العصر ومستلزماته وصلة اللغة بالواقع المعيش فضلا عن التناقض القائم الذي يقر للأموات التشريع في اللغة باسم الأحياء مؤكدا على أن مفهوم الفصاحة مفهوم نخبي لأن ٩٠% من أمة العرب في عهدها المجيد كانوا يتكلمون العامية وليس لهم صلة بمفهوم الفصاحة القديمة وذلك شأنهم اليوم مما يحتم فتح الوضع من جديد وتمكين المحدثين منه سواء بسواء مع القدامى وأكثر منهم . ولقد أيد هذه النزعة محمود تيمور في بحث عنوانه " لغة المجتمع [٢٦] في ميدان الفن والإبداع" وآزرهما مصطفى الشهابي .فيما يتعلق بلغة المصطلحات العلمية والفنية في بحثه "المولد والعامي في علوم الزراعة والمواليد " [٢٧] وكان مفاد مقاربة الزيات وحججها النافذة

تجاوز معركة المصطلحات ومفاهيمها وقياساتها وفتح باب السماع من جديد على مصراعيه للصيغ المقيسة وغير المقيسة وتحرير ذلك السماع من الحدود الزمانية والمكانية والأخذ من المحدثين من جميع أصنافهم لا سيما أهل الذكر وأصحاب الحرف والمهن والعلوم والفنون المعاصرين . فلقد دعا إلى وصف اللغة من جديد في جميع مستوياتها لبنائها على أسس حديثة ملتصقة بالواقع متفاعلة معه ، موفقة بنسبة كبيرة بين نخبتها وعامتها كما هو الشأن في اللغات الرائدة التي وعت هذا الصنف من الأزمات اللغوية الفكرية والخطرية فى إبانها ووجدت لها الحلول الصعبة المناسبة .

وراء هذه المقاربة ما وراءها لو طبقت لكان وقع شديد إذ إنها تقر لأول مرة استقراء اللغة ووصفها بعد سيبويه منذ ما يقرب من اثنى عشر قرنا ، ولعلها تفتح لكتابة التراث بلغة جديدة على غرار اللغة اللاتينية التي كتب تراثها بلغات مختلفة منها الفرنسية والإنجليزية اللتان كتبتا أيضا من جديد مسرح موليير وشكسبير لأنهما تراجعان بعد كل نصف قرن ويدخل عليهما ما يقره المطرد الشائع مع رصف المتروك في المعاجم التأصيلية التاريخية فكيف سنقرأ الجاحظ إن طبقنا ذلك على العربية ؟ وما كان موقف المجمع منها؟أصدر المجمع قرارين[٢٨] يؤسسان للأخذ من العامية مبدئيا ويؤكد أن دراسة الألفاظ الشائعة وقبول السماع من المحدثين شريطة أن تدرس كل كلمة على حدة وألا يكون لها مقابل عربي وأن تكون مستساغة . وتلك سنة المجمع إلى عهد قريب فيما يبدو ، يفتح الأبواب للمهج والآمال ويعدل الأقوال من خلال المواقف والأعمال. ولا شك في أن هذين القرارين يمثلان خطوة إن لم نقل التزاما بالدور الذي تحتله اللهجات في حياة الناس اليومية السياسية والثقافية في فترة من تاريخ مصر والعالم العربي قد حظيت فيه

الجماهير وتعلمها وتربيتـــها وثقافتـــها وحقوقها الدســـتورية والاجتماعيـــة[٢٩] بمكانة مهمة تبـــوئ لغاتـــها وآدابـــها الشعبية وحكمها منزلة متقدمة كان لـــها ولا شك صداهـــا النســـبي فـــي هـــذه المقاربات التي طوعها المجمـــع إلـــى فصاحة مفتوحة، وإن على حذر، ممـــا يشهد بالجهود المتواضعة مـــن أجـــل التوفيق بين التراث والحداثة. ولا شـــك في أن هذه المواقف وما وراءها مـــن خلفيات قـــد ســـاعدت علـــى تطـــور الذهنيات ووجهتها إلى طرح مشـــاريع عملية.

١-٥ اللهجات : رصيدها وأطالســـها ونظامها:

الطريف في هـــذا المســـتوى أن هـــذه الفكرة قد مهدت لها مواقـــف رســـمية وأخرى مجمعية كانت من قبل مشـــددة منها أن محمد كرد علـــى نبـــه إلـــى " عجائب اللهجات " [٣٠] وما يمكـــن أن يستفاد منها ومن رصيدها اللغوي علـــى غرار المعاجم الأوربية في هذا الميـدان الذي ولجه عباس محمود العقاد بمقاربة عنوانها "من اللهجات العامية آمال" [٣١] فضلا عما دعا إليه باســـتمرار الشـــيخ عبد القادر المغربي والأمير مصطفـــى الشهابي لسد ثغرات معاجمنا الأمـــهات في الميادين المهنية والحرفيـــة. ونبـــه مجمعيون آخرون إلى العناية بمظـــهر من اللهجات ومستوى من مســـتوياتها يتعلق بالمغرب الشعبي ودخيله اللذيـــن كثيرا ما دخلا العربيـــة عـــن ســـبيل لهجاتها. ولقد احتج لذلك عبد الوهـــاب عزام في بحثه عن " الألفاظ الفارســـية والتركية" [٣٢] والشيخ محمد الفارســـي في بحثـــه عـــن " الأمثـــال المغربيـــة والأستاذ أ. أ. أمين في بحثه " كلمـــات من اللهجات السودانية " [٣٤] وغـــيرهم كثير من المجمعيين الخـــالدين ، ممـــا يشهد بعروبية القضية وأهميتها وشـــدة الأزمة والطمع فـــي رؤيـــة منصفـــة منقذة.

والغريب فـــي الأمـــر أن هـــذه المقترحات قد تجسمت في مشاريع من

خارج المجمع دفعت بـــها إليـــه وزارة التربية المصريـــة منـــها مشـــروعان يتعلقان بالنظر في معجمين .

أ- معجم الألفاظ العامية لأحمد تيمـــور باشا وهو حسب رأى نلينو معجم مفتاح يشتمل على الألفاظ العامية وتفســـيرها التاريخي والاجتماعي ولم يصـــدر إلا سنة ١٩٦٠.

ب – معجم أصول الكلمات العامية فـي اللغة العربية لأحمـــد عيســـى وزيـــر التربية سابقا والذي كـــانت لـــه أيـــاد بيضاء على تأســـيس المجمـــع ودعـــم مشاريعه .

وتعد عنايـــة المجمـــع بـــهذين المعجمين غنيمة للطرفين المتنـــازعين. فلقد دخلت العامية المجمع مـــن بابـــه الرسمي وإن كان بإيعاز من الـــوزارة المشرفة شريطة أن تقـــاس بمقـــاييس الفصحى ، وأن ترجع إلـــى أصولـــها حتى وإن اشتد الخلاف في شأن تلـــك الأصول وفي جدوى هذه المنهجيـــة ، من ذلك الخلاف حول أصل " برتـــع " و" يتدحدح"، إذ نسبت الأولى إلى"بركع" والثانية إلى " دح الشـــيء " أخفـــاه . وكان في ذلك النقاش شـــجون وفنـــون وهموم [٣٥] سيكون لـــها أثرهـــا فـــي المعجم الوسيط الذي ترخص اســـتعمال العامي المفصح المصري تحت رايـــة المولد مثل " زعل من الشيء " غضـب منه ، و " مزين " بمعنى حلاق .

إن هذه المعاجم وما وراءهـــا من مبادرات رسمية تعكـــس نظريـــة الفصيح والمولد التي تقر أن العامية لن تدرس لذاتها ولحد ذاتها مـــهما كـــانت المحاولات الرامية إلـــى ذلـــك ومنـــها محاولة المجمعي محمد فريد أبو حديـــد في بحث كانت له أصداء في المجمـــع وخارجه وعنوانه " موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحـــى" [٣٦] ولم يسلم صاحبه من اتـــهامات كثـــيرة منها تعويـــض لغـــة القـــرآن باللغـــة العامية.[٣٧] ومفاد مقاربته أنـــه نـــزل اللهجة منزلة اللغة واعتبرهـــا مســـتقلة قواعد ومقاييس ومعجما وآدابـــا عـــن

الفصحى، فضلا عن أن ظاهرتها ليست بدعة وأنها لغة الحياة والفصحى لغة الدراسات ، مما يستدعي البحث عن مواطن تفاعلهما ولو أدى ذلك إلى القطيعة تجنبا لحياة فكرية معزولة عن الحياة الجماعية والاجتماعية فهل من حل؟

ركزت الجهود على وضع أطالس اللهجات ونظامها النحوي .ولقد بدت الفكرة معقولة لأنها تقتصر على خرائط لغوية جغرافية ليس لها أثر تربوي أو أدبي أو علمي فضلا عن أنها تحقق مشاريع عملية مفيدة . فاقترح نلينو وضع أطالس شاملة للهجات تساعد على وضع نظام صوتي يضبط أسماء الأعلام والأماكن خدمة لمشروع أوسع وأشمل لغاية وضع نظام مجمعي صوتي عربي دولي [٣٨] على غرار نظام كوبنهاجن العالمي لنقل الأعلام والأماكن والدخيلات المعربات من العربية وإليها نقلا علميا. وعرضت مناهج كثيرة لتحقيق ذلك منها منهجية Griller الفرنسية ومنهجية Wenker الألمانية.

وتبع ذلك مشروع ثان للويس ماسينيون يدعو إلى أطلس مصري للحرف والمهن على غرار قاموس الصناعات الشامية للقاسمي . وأيد ذلك بتطبيقات وفقا لمقاييس وضعها في هذا الشأن MAREEL MAGET سنة ١٩٤٩م . ودرس المجمع مشروعا ثالثا قدمه خبيره في اللهجات شارل كوينز لأطلس مصري في إحدى عشرة لوحة صوتية وست عشرة لوحة صرفية وثلاث لوحات دلالية. ولم يطبق حسب علمنا لتلك المشاريع داخل المجمع إلا إذا أدرجنا في هذا السياق قرار المجمع بإجازة استعمال أسماء الشهور حسب الرزنامات الهجرية والرومية والسريانية والقبطية[٣٩] التي للعامية فيها نصيب مع تفضيل النطق الإنجليزي بها وإن سبق لمصطفى الشهابي أن دعا إلى تفضيل النطق الفرنسي المعتمد في أغلب بلاد المغرب العربي. في مستوى

الأصوات عرض على المجمع مقترح قدمه المجمعي حسن حسنى عبدالوهاب سعيًا إلى إقرار نطق عربي مشترك بها وفضل الشيخ المغربي أن يعتمد على نظام العامية المصرية الصوتي. وفى هذا السياق زكى المجمع مبدئيا مشروع خبيره خليل عساكر وهو يتعلق بنظام لرسم أصوات العامية عالج فيه عقدها الحركي وجزءًا من أصواتها الساكنة.

وكان النحو العنصر المغبون من القضية رغم ما قدمته لجنة اللهجات من اقتراحات تهدف إلى دراسة اللهجات صرفا ونحوا وأسلوبا دون أن تقدم في ذلك مشروعا واضحا . فاقتصرت المبادرات على مجموعة من الرؤى والأفكار التي شملتها دراسة محمد فريد أبو حديد التي قبرت بدون رجعة .

فما عسانا نستخلص من الجدل المتعلق بدراسة اللهجات دراسة علمية من زمان والتي تعود إلينا اليوم تحت عنوان الفصحى والعامية رغم كل المحاولات السابقة ؟ نلاحظ :

اقتراح مشاريع واتخاذ مبادرات وقرارات قل أن استحالت إلى تطبيقات عملية مما يفيد أن الجدل في صيغته المعتمدة لا طائل وراءه ويعود ذلك إلى:

أ) موقف مبدئي صارم ميز بين لغة معيارية صافية ولهجة وليدة ملوثة كأنها معضلة يتحتم عودتها إلى الأصل دون اعتبار أن كل لغة كانت في أول أمرها لهجة قد حالفتها ظروف عقدية أو سياسية أو حضارية [٤٠] وأن فصاحتها ستؤول، إن تحضرت وامتدت على مساحات كبرى واستعملتها شعوب كثيرة : إلى فصاحات ولهجات لابدَّ من تدبر أمرها.

ب) اعتماد مفاهيم مفاتيح مثل الفصيح الأفصح والمولد المخضرم أو المعاصر المولد منه .. إلخ، لدمج العامي فيها دون السعي إلى البحث عن مظاهر التفاعل بين اللغتين مثل اعتماد عجائب اللغات آمالا لتنمية معجم

الفصحى بمشترك العامية المطرد الشائع في الأقطار المستعملة لهما كتابة ونطقا .

جـ) انعدام دراسات متخصصة مكتملة تدرس فيها اللهجات لذاتها ولحد ذاتها من خلال عينات عربية متنوعة تستخرج منها خصائصها بدون قيود ولا شروط مسبقة لتوفير فرصة تاريخية موضوعية لمقارنتها بالفصحى طمعا في حلول ممكنة.

د) استبعاد القضية باسم مبادئ عقدية وسياسية وثقافية لمعالجة قضية لغوية تعتبر العامية خطرا على الفصحى وبالتالي على القرآن الكريم والدين والوحدة العربية المنشودة ، وما وراء ذلك من مواقف تصل إلى حد الاتهام بالكفر والخيانة والمؤامرة .. إلخ ، لكل من تجاسر على تقديم حلول لهذه المعضلة التي ستنال من الفصحى ولهجاتها إن استبد بها التمذهب الذي وسمه بعضهم بخطر الفصحى على العربية[٤١] سواء بخطر العامية على الفصحى، مع ملاحظة أن العقيدة لا تنتشر بلغة واحدة وأن الأديان الكبرى التي جاءت للعالمين قد شملت المعمورة بدون مباني ودلالات لغات ، وأن المسلمين غير الناطقين بالفصاحة العربية هم أكثر ملة الإسلام .

فهل من مقترجات تساعدنا على أن نتقدم؟ يبدو أن ذلك يكون بالمقارنة والتدرج من خلال :

أ) نشر الدراسات والبحوث والقرارات التي صدرت عن المجمع لتكون نواة لدراسات مستقبلية .

ب) دراسة اللهجات لذاتها ولحد ذاتها وتدريس خصائصها وآدابها في معاهد متخصصة تعنى بالآداب والفنون الشعبية والحرف والمهن .

جـ) عقد ندوات عربية متخصصة يشارك فيها أهل الذكر من ميادين مختلفة لتصبح القضية قضية عربية إسلامية دولية لاستصدار مقترحات وقرارات جماعية مبررة ومقنعة ونافعة منها النظر في وصف جديد

للعربيـــة فصيحـــها وعاميتـــها فـــــي القديم والحديـــــث فـــي ســـبيل حلـــول ممكنة على ضوء الدراسات اللســـــانية الحديثة .

د) استقراء معجم اللـــــهجات المطـــرد والمشترك حسب حقب يتفـــــق عليـــها واستثماره لتنمية الفصحى وتطعيمـــــها مبنى ومعنى .

هـــ) تخليص صلات الفصحى بجميـــع أنواعها باللهجات بجميع مستوياتها مـــن الأحكام الازدرائية ومن القطيعة القائمة بينهما وبالأحرى مـــن الغربـــة التـــي تقبعان فيها لتتواصـــلا وتتكـــاملا لأداء وظيفتين إحداهمـــا ثقافيـــة والأخـــرى اجتماعية مثلمـــا تشـــهد بذلـــك هـــذه المقطوعة لبيرم التونسي التي تتفـــاعل فيها الفصحى ولهجتها المصرية فرحـــا بالعودة من الغربة إلى الأوطان، لا يقل وقعها عن وقع نفس المقطوعة لو كتبت كاملة بالفصحى مع العلـــم أن الشـــعر بشاعره ، وهو هنا بيرم التونسى الـــذي يقول :

" غلبت أقطـــع تذاكـــــر
وشبـــعت يا رب غربـــة
بين الشطوط والبواخـــر
وبين بلادنـــا وأوروبـــــة
في بور سعيـــد السفينـــة
وقفـــت تفـــرغ وتمـــــلا
والبياعـــين حوطونـــــا
بكـــارت بوستـــال وعمله
لكـــن بوليـــس المدينـــة
ما تفوتش من جنبه نملـــة
يا بور سعيد والله حســـرة
ولســـــه يـــــا إسكندرية
هتف بي هاتف وقال لـــي
انـــزل ومن غير عزومه
انـــــزل ساعـــة تجلـــي
فيهـــا الشياطين في نومـــه
انـــزل ده ربـــك تمـــلي
فوقك وفـــوق الحكومـــة
نطيت في ستر المهيمن
عالبـــر يـــا حكمداريـــة
وأقـــول لكم بالصراحة
اللـــي ف بلادنـــا قليلـــة

عشرين سنة في السياحة
بشوف مناظر جميلـــة
ما شفت يا قلبي راحـــة
في دى السنين الطويلـــة
إلا اما شفت البراقـــع
واللبـــــدة والجلابيـــة "
حرام أن يموت هـــذا الإبـــداع

الفصيح وأن يخرج من تاريخ ذاكرتنـــا
الفكرية والثقافية والجمالية وأن ندفنـــه
باسم ... وباسم ... وباســـم .. الأســماء
كلها ومالها من تخريجات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد رشاد الحمزاوي

عضو المجمع المراسل من تونس

الهوامش

١) وموضوعها " الفصحى والعامية "

٢) محمد رشاد الحمـــزاوى: أعمـــال مجمع اللغة العربيـــة بالقـــاهرة ــ دار الغرب الإسلامي ــ بـــيروت ١٩٩٨م، ص ٦٧٣

٣) وفي المشرق العربي "ريمة "

٤) ومنها كذلك المصطلحات العلميـــة، والمعاجم بأنواعها

٥) ونذكر على سبيل المثال :

أ) عيسى إسكندر المعلـــوف : اللغـــة العربية العامية، مجلة المجمـــع ١/٣٥٠ – ٣٦٠

ب) حسن حسنى عبد الوهاب : تحقيق " الجمانة في إزالة الرطانة " لمجـــهول عن اللهجات في تونس والأندلس . وقد خصـــص نلينـــو دراســـة للهجـــة المصرية سنة ١٨٩٤. واكتشف نلينـــو نصوصا صفائية وثمودية حل ألغازهـــا لأول مرة .

٦) محاضر الجلسات ١/٢٧وما بعدها.

٧) المصدر نفسه

٨) المصدر نفسه١/٢٨٧

٩) نفسه ص ٢٩٢ – ٢٩٣

١٠) وقد وسمه بذلك الوصف الأمـــير مصطفـــى الشـــهابي فـــي كتابـــه المصطلحات العلمية في اللغة العربيـــة في القديم والحديث ــ القاهرة ١٩٦٥

١١) محاضر الجلسات ١/٣٩٣

١٢) مجلة المجمع ٤/٣، ١٧٣، ٥/٤ ، ٨٣، ١٨٧

١٣) بليسون ودولفي ــ تاريخ المجمـــع الفرنسي، باريس ١٨٥٨ جزء ١/٤٩١

١٤) محاضر الجلسات ١/٣٠٣

١٥) محمد رشاد الحمزاوى : أعمـــال مجمع القاهرة ص ٢٦٧

١٦) السيوطى ، المزهر ١/٣٣٤

١٧) محاضر الجلسات١/٢٩٤، ٣٢١ ، ٣٣٠

١٨) وهو يعنى بها نقل أساليب تعبيرية أعجمية بلغة عربيـــة مســـتقيمة مثـــل: " لا جديد تحت الشـــمس " و " أعطـــاه فرمانا أبيض " .

١٩) محاضر الجلسات ١/١٨٥، ٢٥٧. ولقد سبق لأبي عمرو بن العلاء أن قال في الفصيح هو ما " يحمل على الكثير"
٢٠) نفسه ٧/٣١٣
٢١) نفسه ١/٣٣٠
٢٢) محمد رشاد الحمزاوى : أعمال مجمع القاهرة ص ١٨٣
٢٣) محمد رشاد الحمزاوى: المعربات والدخيلات فى المعجم الوسيط- حرف الباء عينة - مجلة المجمع ١٩٩٧ .
٢٤) محمد رشاد الحمزاوى : العربية والحداثة أو الفصاحة فصاحات بيت الحكمة ــ بيروت ١٩٨٦ حيث أسسنا لمفهوم الفصاحة فصاحات منذ زمان وقد أخذ عنا كثير من الناس بهذا المفهوم دون الإشارة إلينا ــ انظر مثلا مقدمة معجم " الفصيح العام " لأحمد موسى في لبنان .
٢٥) أحمد حسن الزيات : الوضع اللغوي وهل للمحدثين حق فيه ــ مجلة المجمع ١٨/١١٠ ، ١١٦
٢٦) محمود تيمور : لغة المجتمع ــ مجلة المجمع ٩/١٩-٣١
٢٧) مصطفى الشهابي: المولد والعامي في علوم الزراعة والمواليد ، مجلة المجمع ١٣/٩١-٩٤
٢٨) مجمع اللغة العربية : مجموعة القرارات ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١٣.
٢٩) التمذهب الوحدوي الاشتراكي الذي أسست له الناصرية كان له لا محالة أثر كبير على هذه المواقف .
٣٠) محمد كرد على:عجائب اللهجات، مجلة المجمع ٧/١٣٧
٣١) محمود عباس العقاد: من اللهجات العامية آمال، مجلة المجمع ١٠/١٠٧-١٠٩
٣٢) عبد الوهاب عزام : الألفاظ الفارسية ، مجلة المجمع ٨/٣٦٢-٣٦٥
٣٣) محمد الفاسي: الأمثال المغربية، بحوث ومحاضرات ١٩٦٠-١٩٦١ ص ٢٠٤-٢١٦
٣٤) أ.أمين : كلمات من اللهجات السودانية: مجلة المجمع ٩/١٢٢-١٢٤

٣٥) محاضر الجلسات:١٣٧/٤ ؛ ٣٨٤

٣٦) محمد فريد أبو حديد : موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى - مجلة المجمع٢٠٥/٧-٢١٨

٣٧) محيى الدين الخطيب : لغة القرآن والتطور، مجلة الفتح عدد ٨٥٠ ، ١٣٦٦ ص ١-١٤

٣٨) محمد رشاد الحمزاوى : أعمال مجمع اللغة العربية ص ٢٠٠-٢٢٠

٣٩) وقد استثنيت سورية من استعمال القبطية وهمشت مكانة المغرب العربي

كالعادة .

٤٠) الملاحظ أن العربية انطلقت أساسا من لهجة قريش التي نزل فيها جل القرآن . وذلك شأن الفرنسية النابعة من لهجة توران والإسبانية المتولدة من لغة عسكر قشتاله ، والإيطالية من لهجة توسكانا ... إلخ .

٤١) كان ذلك في مقالة مشهورة للروائي التونسي البشير خريف المشهور صاحب رواية " الدقلة في عراجينها "